نقبـــــل منهم ...

للاستاذ ثروت أباظة

تلقينا (الرسالة) ونحن فى مجلس كأنما أعدَّ لها ، فتناولها قارىء منا وأخذ يتلو علينا مقالاتها متنقلا بين علم وفن وأدب حتى بلغ الصفحة الأخيرة ، فطوينا الرسالة — لا زالت منشورة — ثم أخذنا نجيل الحديث بيننا نخفف به ثقل الوقت ونقصر طوله . وكان فى شعر المجلة أبيات من شاعر إلى ابنه يبثه الأبوة الرحيمة ، ويعقد به الرجاء المأمول ، فقال أديب جالس :

— عجيب أمر هذه الأبوة ! كانت فى صدر الزمان قداسة يشرف الابن أن يتطلع إليها ويستمع إلى ممثلها كأنه إله لا يصدر فى أفعاله وأقواله إلا عن الصواب المحض . وكان الأب من ناحيته يرث القسوة عن أبيه وأجداده ، فيبديها لأولاده ، ولو ترك لعاطفته لما بدا منه غير الرحمة . وهكذا قام الصراع فى قلب الوالد بين قسوة دخيلة ورحمة أصيلة ، وظلت العاطفتان تصطرعان منذ عهد الرومان أيام كان الوالد يملك الحياة والموت على أهله حتى اليوم ، إذ نرى الوالد يتوجه إلى ابنه بهذا الحب الصافى وبذلك الرجاء الواسع الذى يعلقه عليه ... وهكذا تغلبت الرحمة الموهوبة على القسوة المكسوبة ، وانطلقت النفوس لا يقيدها عرف ، فأبان الوالد عن خلجاته ، وكشف للابن عن نبضاته ، فانسجم البيت على حب ظاهر لا قسوة فيه ولا عنف . قلت : جميل أن يظهر الوالد عواطفه ، وجميل أن يأخذ ولده باللين ... ولكن إذا شب الولد عن الطوق ووالده لا يزال يأخذه بالرحمة ، لا يهديه إذا ضل ، ولا يعاقبه إذا زل ، وأمه لا تنفك تعامله بالحنان ؛ فهل يمكن أن يكون هذا الابن تكأة لوالديه عند الكبر ، أو مفخرة لهما يوم الفخر ؟ ...

أثبتت الأيام ، وما تزال تثبت ، أن هذا لا يكون وأن هذا الابن ذا الملعقة الذهبية يتمرد على أبيه إذا قدم له الطعام فى ملعقة من فضة ... فهو يستوطىء الدعة ولا يعرف من حياته غير مائدة شهية ، وفراش وثير ، وغيد ملاح ، وكؤوس دهاق ... فالأبوة على هذا اللين قسوة ... إنما تتمثل الرحمة فى عصا الوالد التى تقود الابن إلى السبيل الأقوم .

— لقد تحدثت فأسهبت ، ولكنك أطلقت قولك كمن يلقى محاضرة لا يعرف موضوعها ، فأناحين أقول إن النفوس أرسلت على طبيعتها لم أقصد بذلك أن يضع الوالد ولده على كرسى ثم يسمعه عبارات المديح والحب ... إن الحبيب لا يطيق هذا من حبيبه ، فكيف والأمر بين ابن وأب ؟ إن الابن لا يقبل هذا الثناء فهو يعرف عن حب أبيه إياه ما لا يحتاج معه إلى هذا التبيان ؛ بل لعل القول ينقص من قيمة هذه العاطفة فى نظر الابن ... إنما أقصد إلى الرحمة الصادقة ... أما ما كان فى غابر العصور من قسوة فهو يخالف الطبيعة ويرهق الوالد والابن جميعاً .

— نسيت يا صديقى أننا نتكلم عن قصيدة من شاعر إلى ابنه .

أنسانى طول المناقشة سبب النقاش فأومأت على حين جبهنى مناقشى به ، وكان بالمجلس شيخ وقور أخذ يستمع إلى الحوار فى إنصات ولذة دون أن يتكلم ، ولكنه لما سمع الإجابة الأخيرة ورأى حيرتى شارك فى الحديث :

— أمنكما والد ؟

قلت — إنما نحن أبناء .

قال — إن كليكما قد أصاب فى قوله .. وكأنى بكما وأنتما تتناقشان تمثلان الصراع الذى كان قائما فى صدر الوالد قبل أن تتغلب الرحمة ، ولكن الأب الحق وسط بين قوليكما ؛ فالرحمة الدائمة والقسوة الدائمة كلتا الخاتين فيها مضيعة لقوام الابن ... فالوالد محتاج إلى كثير من الحزم يعرف به كيف يضع الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، فلا يجعل الشدة فى موضع اللين ، ولا الرحمة فى موطن القسوة ، ولكن نسى كلاكما أنه إنما يتحدث عن الشاعر ، وهو وحده الذى يستثنيه المجتمع من كل هذه القيود . فاننا لا نحتمل شاباً يحدثنا عن مغامراته الغرامية ، ولكن إذا كان شاعراً وصاغ لك مغامرته فى قصيدة فإنك لا شك تطرب لها وتعجب بها . وإذا كنت محباً فانك واجد فى قصيدة الشاعر متنفساً عما يجيش بصدرك وتشفق من إخراجه نثراً حرصاً على كرامتك إذا كنت أخا كرامة ، وكذلك الوالد الشاعر يقول قصيدته معبرة عن مشاعره نحو ابنه